

## النسب اللعين

فمن دعاه فقالوا له ان دعاه فسد  
من ان دعاه فقالوا له ان دعاه فسد  
فان دعاه فقالوا له ان دعاه فسد  
فان دعاه فقالوا له ان دعاه فسد  
فان دعاه فقالوا له ان دعاه فسد  
فان دعاه فقالوا له ان دعاه فسد  
فان دعاه فقالوا له ان دعاه فسد  
فان دعاه فقالوا له ان دعاه فسد  
فان دعاه فقالوا له ان دعاه فسد  
فان دعاه فقالوا له ان دعاه فسد

والله اعلم بالصواب

والله اعلم بالصواب

يعود عالم الاسلام مجدداً ليحتل مسرح التاريخ ؛ وعلى أرضه تجري أحداث جسام ستحدد نتائجها معالم عالم المستقبل . غير ان ارادة عالم الاسلام في أن يعود من جديد ، ليؤكد عبقريته مرتبطة بقدرة الاسلام لا على الفعل التاريخي وحسب ، بل وأيضاً بقدرته على بلورة مشروع مجتمع ومشروع حضارة حقيقي يجابه مشروع النظام العالمي الذي هو ، بما فيه المشروع الاشتراكي ، نتاج حقل ثقافي غربي مرتبط بالحقبة الصناعية .

## هوبس والليفياتان (Leviathan)

لم يسقط المجتمع الصناعي من السماء فجأة ، بل انه حصيلة ثورة ثقافية حقيقية قامت في القرن الثامن عشر .

كان الغرب حتى القرن السابع عشر مسكوناً بفكرة الله ، أما القرن الثامن عشر فقد استبدل بخلّاص الروح ارادة السيطرة على الطبيعة والسعي وراء السعادة المادية وأخيراً التسابق الى التقدم التقني والصراع عليه . هكذا خلى بوسويه مكانه لروسو ، لديدرو ، لهوبس ، لبيكون ولديكارت .

لتأمين حياة وتطوّر التصنيع ، ولدت بنية اجتماعية جديدة . قوّضت الايديولوجية الفردية ، التي هي قاعدة هذه البنية الجديدة ، البنى الخيالية والرمزية للمجتمع القديم . الانسان في اطار هذه البنية الجديدة مادي أولاً . ولكن وكما يحدث غالباً لا يُطرد إله إلا ليحل محله إله آخر : إله العجل الذهبي ، الذي هو هنا إله الربح . منذ الان لن يحقق الانسان الفرداني (Individualiste) ذاته إلا في التنافس والمزاحمة التجارية .

وأخيراً فإن هذا الانسان المادي ، الفرداني هو أيضا غازي ؛  
فمنذ ١٤٩٢ واكتشاف أمريكا وهو يبذل قصارى جهده لتأمين  
وتعزيز غزوته ، إبادة الجنس الهندي الأحمر ، النخاسة طوال  
قرون ، استعمار اكتسح القارات كلها وها هو يلفظ أنفاسه الأخيرة  
أمام أنظارنا محتفظاً رغم ذلك ببعض الجيوب العنيدة كما في  
كاليدونيا الجديدة ، وجزر الانتيل والمالوين وغيرها ، حربان  
عالميتان كلفت أولاهما ٢٠ مليون ضحية وثانيتها ٦٠ مليون  
ضحية . وليس هذا كل شيء فالحصيلة المشؤومة تشمل أيضاً وكيفما  
اتفق : دخان أفران معسكرات الاعتقال النازية ، الغولاغ معسكرات  
العمل السوفياتية ، مصحات الأمراض العقلية الموصودة  
للمعارضين السياسيين ، سماء الكوليم ، أطنان المواد الكيماوية  
المبيدة للأحراج والغابات التي أقيت فوق فيتنام ، قنابل هيروشيما  
وناجانكي ...

إنّ منطق هذه الروح الغازية مسكون بوحش ذي قلب جليدي هو  
الذي يعطيه سمّته الكونية ، فلا أحد على الأرض بمنأى عن عنفه  
المداهم ، حتى الحجر ، والشجر ، والحيوان لم ينج من انحراف مثل  
هذا المنطق ، لأن هذا القلب الجليدي والملوث قد لوث أيضا  
محيطه .

وهذا ما يفسره ، انطلاقاً من الانتروبولوجيا (الاناسة) كلود ليفي  
شروس بشكل مغاير : بوسعنا ان نبكي لأن هناك شيئاً اسمه التاريخ  
(الكلام هنا عن إبادة هنود الأمازون) : ان تاريخ الغرب وتقنياته ليس  
سوى هذا التاريخ : إبادة الحياة الطبيعية (Biocide) لا تفترق عن إبادة  
الأعراق البشرية (Ethnocide) .

لم يعد التوازن الاجتماعي سوى حصيلة لصراع المصالح الفردية  
مضافاً الى سيطرة أكبر على الطبيعة التي باتت تستغل على أوسع  
نطاق .

الانسان كما يراه هوبس في كتابه (الليفياتان) : شرس بهيمي وفظ  
غليظ القلب ... يعيش في حالة توحش وعداء . وهذا يفترض طبيعة  
عدائية لا طبيعة ودية متناغمة ، مصدراً للعنف لا للحياة . اجتماعياً  
عوض القصد بالعنف ، والذكاء بالغريرة . وعلى هذا النحو أقيم  
النظام السياسي على الرهبة والمصلحة الفردية . والهيئة السياسية  
التي تصدر عن هذا التصوّر هي ما يسميه هوبس بـ (الليفياتان) ،  
وهو وحش بحري يرمز إلى القوة الجماعية لعنف المجتمع ، صيغة  
حديثه لصراع إله النور ابولون مع الأفعى بيتون (Python) .

## كل واحد ضد الجميع والجميع ضد كل أحد : الحرب الشاملة

كل واحد ضد الجميع ، الجميع ضد كل أحد : الحرب الشاملة تقع  
في قلب نظرية هوبس للطبيعة والمجتمع ، والتي ستحرك التأمّلات  
السياسية والاقتصادية من ادم سميث وريكاردو وكارل ماركس الى  
المأزق النووي الحالي . هذا ما كتبه ريتشارد لومباردي (Lombardi)  
الذي يضيف قائلاً :

«لقد أخذ ماركس بآراء هوبس ودافيد هيوم وريكاردو حرفياً  
مكتفياً بتغيير ولائه ، أي بوضع نفسه في خدمة الجماهير . بيد ان  
منطلقه يبقى بالرغم من ذلك هو نفس منطلقهم» .

النسب اللعين : تكوّن نظام

الأقرب هو دافيد هيوم الذي كتب : لقد لخص الكتاب السياسيون هذا العلم في مبدأ عام : لا بد عند إقامة أي نظام حكومي ، من الاعتراف بأن في كل إنسان نصابا لا هم له في كل ما يأتيه إلا مصلحته الخاصة .

اقام آدم سميث ، تلميذ هيوم ، في كتابه (ثراء الأمم) نظرية إقتصادية استلهمها من أفكار هيوم . وبعده مباشرة ظهر توماس مالتوس وكتابه (بحث في مبدأ السكان) الذي أحدث ضجة كبرى في مسألة تزايد عدد السكان . يقول مالتوس : ان البرهان الأساسي الذي سأقدمه ليس بالأكيد برهانا جديدا ، فالأساس الذي يقوم عليه فسره بشكل جزئي هيوم ثم بشكل أعمق آدم سميث .

علينا ان لانسى أن مالتوس وهوبس وادم سميث يشهدون على المناخ الفكري الخاص بـ (حقبة العقل L'âge de la raison) . لقد عرفت هذه الحقبة إنتشار البؤس في أوروبا ؛ فالحروب النابوليونية وعنف الثورة الصناعية الأولى التي تميزت بإستغلال في منتهى الضراوة كانت مصدرا لبؤس لا حدود له . وكان يعتقد إذاك ان ذلك ليس سوى مرحلة إنتقالية ، ممر ضروري للوصول الى عهد الرخاء . يقول مالتوس : ان المجاعة تبدو وكأنها حيلة الطبيعة الأخيرة المرعبة . فدينامية تزايد السكان تتجاوز قدرة الأرض على إنتاج ما يحتاجه الانسان من موارد العيش مما يجعل الموت المبكر ينقض بطريقة أو بأخرى على الجنس البشري . لهذا الموت المبكر ، لهذا الخطر في نظر مالتوس ، وظيفة أولى هي شحذ الصراع من أجل البقاء ، وفي نهاية المطاف ، تطوير النوع البشري .

## الاقتصاد الحسابي (Arithmomorphique)

### علم العلوم

تمثل لوس الاموس (Los Alamos) النقطة القصوى لمسار انجبه تسلسل فكري يبدأ من ديكارت وهوبس وتنتهي إلى ماركس مرورا بهيجل ونيتشه وبالاقتصاديين آدم سميث وريكاردو .

اتخذ هذا الانسان المادي ، الفرداني ، الغازي المشدود إلى هذا النسب الفكري من الكم (Quantum) قانونه الأساسي ، ومن الرياضيات علم العلوم . وفرض علم الاقتصاد هيمنته الطاغية على كل حدّ على كل العلوم الانسانية ، فاخترت العلوم الاجتماعية إلى مجموعة من القوانين الاقتصادية الشاملة للتاريخ وعلم الاجتماع وعلم السياسة والانتروبولوجيا بل وحتى علم النفس ، والملخصة لها جميعا .

النماذج الاقتصادية هي التي تحدد تنظيم المجتمع وصورتها أيضا . وهي مرتبطة بالأسس الفكرية لهذا المجتمع وبفلسفته تجاه الحياة ..

## توماس مالتوس (Thomas Malthus)

### الديموغرافيا لنجدة الاقتصاد

بلور هوبس بكتابه (لوفيتان) علما للدولة . وكان وريثه الروحي

## من مالتوس إلى داروين : قصة إنحراف

يقول مالتوس : ان الضرورة التي هي القانون القاهر والكلي الحضور للطبيعة ، يحتفظ بالكائنات الحية في إطار الحدود المقررة . وهكذا فالأنواع الحيوانية والنباتية تتقلص في ظل هذا القانون المضيق ، وليس بوسع النوع البشري ، مهما بذل عقله من مجهود ، ان يفلت من اساره . ولهذا القانون في مملكتي الحيوان والنبات تأثيرات شتى : ضياع البذرة أو النطفة ، الأمراض ، الموت المبكر ، وفي مملكة الانسان : البؤس والرذيلة .

يرى ادم سميث : ان اليد الخفية هي التي تتحكم في شروط السوق وفي توازن العرض والطلب . ويلعب سوء التغذية ، في نظر مالتوس ، نفس الدور داخل العائلة البشرية ، يقول ريتشارد لومباردي : ينبع النظام من الفوضى على شكل ركلة تسدها الطبيعة إلى المؤخرة ، مضيفاً : ان نظرية ريكاردو في المزايا المقارنة صادرة مباشرة عن مالتوس . وبالفعل فان مالتوس كان صديقه واستاذ الفكري ومحاميه فيما يخص معاملات الأدبية . يرى ريكاردو بأن التفاعل الحر للمزايا الفردية مصدر للتقدم والفعالية .

كان لأفكار مالتوس تأثير حاسم على صعيد اخر هو صعيد نظرية الطبيعة مطبقة على عالمي الحيوان والنبات : داروين ونظريته في الانتخاب الطبيعي للأنواع الحية . ان تطور الأنواع هو أيضا حلبة صراع لا هوادة فيه حيث يهلك الضعاف ليحل محلهم نوع جديد أكثر قدرة على مجابهة الحياة . وبهذا الصدد لم يزد داروين على إعادة إنتاج مفهوم مطابق للمناخ الايديولوجي الذي كان سائدا في تلك

النسب اللعين : تكون نظام

الحقبة . يقول داروين : ان الانسان ينحو نحو التكاثر بإيقاع جد سريع بحيث ينتج عنه من وقت لآخر صراعات ضاربة من أجل البقاء على قيد الحياة ؛ وبالتالي الى القضاء على التغيرات الضارة ، بينما يتم الاحتفاظ بالتغيرات المفيدة للجسد والروح .

إن تشكّل النوع ، كما نرى ، يصدر عن نهج مطابق لنهج النظام السياسي والاقتصادي ، لكن إذا ما بقي شك حول وشائج النسب بين مالتوس وداروين ، فان ذلك لن يستمر طويلا عندما نعلم ان داروين نفسه يعترف : لقد أخذت في قراءة نصوص مالتوس حول السكان على سبيل التسلية ... ولكني أخيرا عثرت فيها على نظرية أنطلق منها في أعمالي ...

## الداروينية ودلالاتها

لقد صادفت أفكار داروين نجاحا كبيرا لأنها كانت بمعنى ما تدعم المؤسسة الفكرية لتلك الحقبة . ولقد اتضح فيما بعد وبفضل منجزات بعض علماء الحيوان أن هذه الأفكار كانت الى حد ما مبسطة ، وان داروين وصف أساسا انقراض الأنواع وليس تطورها . وخصوصا فان اعمال عالم النبات الراهب جوهان مندل (Johan Mendel) هي التي وجّهت ضربة جديّة إلى أطروحات داروين . ذلك ان مندل بدوره يدافع عن أطروحة مفادها ان الطبيعة ليست فوضى بل نظام مقصود وليست بلبلة بل مراتبية وانسجام وان هذه العناصر ضرورية للحياة . وفيما بعد لاحظ البيولوجيون أكثر فأكثر الطابع التبسيطي والميكانيكي لأفكار داروين .

يقول ج. سيمبتون (G. Simpton) : ان تطوّر الأنواع يمر أحيانا

الصفحات ستغلق على نفسها مع ماركس . في كتابه (دور العنف في التاريخ) يكشف أنجلز ان ماركس كان يأمل اهداء الكتاب الأول من الرأسمال إلى داروين ؛ في سنة ١٨٨٠ كتب ماركس إلى أنجلز قائلاً : ان مؤلف داروين على درجة كبيرة من الأهمية ، انه يخدمني في ترسيخ مفهوم الصراع الطبقي في العلوم الطبيعية .

قرنان تقريباً يفصلان ليفيتان هوبس ورأسمال ماركس ، ورغم هذا فان نفس الاخدود الفكري يعبر هذين القرنين ونفس الأسس الفكرية تغذيهما .

مع ماركس تنغلق هذه الدائرة ، وعلى أرضية هذه الأسس يقوم صرح النظام العالمي الذي يتحكم في مصائرنا . تقدّم الماركسية تحديداً اقتصادياً للإنسان ؛ ان الانسان يستمد هويته من وضعه كقوة عمل ، انه وسيلة عملية اقتصادية وليس غايتها . هكذا تلتقي الماركسية بالليبرالية فيما يخص مشكلة الغايات النفعية .

## الآزمة المتعددة الأشكال

ان هذا النظام العالمي يعيش أزمة عميقة ، ليس هذه الأزمة اقتصادية فحسب بل ثقافية وحضارية . لا شك ان الزراعة قد اغتيلت في الجنوب وان التصحر السريع الذي ترمز إليه مأساة الساحل والـ ٤٠٪ من الغابات الاستوائية التي اختفت في ظرف عشر سنوات ، وان الجوع أصبح مأساة يومية تقتل كل عام ٥٠ مليون انسان منهم ١٧ مليون طفل ، وأكثر من مليار انسان تنخرهم الأمراض الاستوائية التي يتجاهلها عملياً البحث العلمي في بلدان

بالصراع ، ولكن مثل هذه الحالة ليست سائدة في مطلق الاحوال ، وعندما يكون الأمر كذلك فإن الصراع يكون ضد الانتخاب الطبيعي لا في صالحه . ان ميزة التناسل التفاضلي (Reproduction différentielle) هي أنه في الغالب عملية (Processus) سلمية بعيدة كل البعد عن فكرة الصراع . انها تأخذ غالباً مسالك أخرى مثل اندماج أفضل ضمن محيطها البيئي أو الحفاظ على التوازن في الطبيعة ، أو استعمال أكثر فعالية للغذاء المتوفر أو تحسّن العناية والرعاية المبذولة للناشئة (عن كتاب The meaning of evolution ص ٥٢) .

كل هذا لا يمنع ان داروين كان ابن عصره . ولقد اثرت أفكاره في العديد من رجالات العلم والاجتماع والاقتصاد وفي العديد من المثقفين وذلك بإقناعهم بأن : أنياب الطبيعة ومخالبها مضرّة بالدماء متجاهلاً ما تثبته اليوم المعطيات التجريبية . هذه المعطيات التي مكنت أشلي مونتاغو (Ashley Montagu) ان يلاحظ بأن : الانسان هو المخلوق الوحيد الذي يشنّ هجومات ضد نوعه . فحروب النمل وغيرها من المخلوقات الخرافية محض خيال .

غير ان هذه الأصوات العلمية الموثوقة طغت عليها أصوات اليمينيين واليساريين .

هكذا فان هربرت سبنسر (Herbert Spencer) ، وهو يميني ينقل حرفياً إلى المجال الاجتماعي والاقتصادي أطروحة داروين حول الانتخاب الطبيعي المتعلقة بالأنواع ، أما نيتشه فانه يذهب إلى أن العنف هو حاضنة التاريخ وإن الانسان ليس بوسعه إلا أن يصير أفضل وأكثر شراسة .

إن دائرة النسب الفكري التي أشرنا إليها على امتداد هذه

يقول الفيزيائي فريتجوف كابرا (Fritjof Capra) الحائز على جائزة نوبل : ان الأمر يتعلق بأزمة مركبة ومتعددة الأبعاد تمس كل جانب من جوانب حياتنا ، صحتنا ، وسائل عيشنا ، نوعية بيئتنا ، علاقاتنا الاجتماعية ، اقتصادنا ، تكنولوجيانا والسياسة .

للمرة الأولى نجد انفسنا مهددين بخطر انقراض النوع البشري وكل شكل من أشكال الحياة فوق هذا الكوكب ٥٠٠ مليون إنسان مصابون بسوء التغذية وحوالي ٤٠٪ من سكان العالم لا يتمتعون بالخدمات الصحية و ٣٠٪ ينقصهم الماء الصالح للشرب ، بينما نصف علمائنا ومهندسينا يكرسون ابحاثهم لتكنولوجيا انتاج الأسلحة .

## الانسان - الآلة

إن نزعة ما لتيار فكري معيّن في الغرب اعتبر الكائنات الحيّة كآلات ، وقّدت المادة هي المسؤولة عن هذه الأزمة وعن حيرة الانسان قاطبة .

«إنّ المكننة (Mécanisation) والماديّة هما أساسا الفكر العلمي ... ولست أقبل بتاتا الرأي القائل بأن الظواهر الروحية لا تتحمل وصفا فيزيائياً - كيميائياً . إن كل ما نتعلمه في شأن هذه الظواهر سيكون ميكانيكياً ... وبالنسبة للعلم ، إذا لم يكن الأمر على هذا النحو فلا شيء على الاطلاق» . هذا ما أكدّه العالم البريطاني نيدهام (NEEDHAM) قبل أن يكتشف الرؤيا العضوية للكون ويصبح نصيرها المتحمس من خلال اكتشافه للعلم الصيني . هذه الرؤيا

الشمال المهتم أكثر بالبرطان ، بأمراض القلب والشرابين وشلل الأطفال ، بسبب قانون السوق والريح . اننا نشهد دون شك افلاسا لعقود التنمية الثلاثة التي دعت إليها الأمم المتحدة مضافا إليها افلاس ما عرف باسم حوار الشمال والجنوب . اننا نعيش أيضا مأساة ديون العالم الثالث المتقل أكثر فأكثر بالديون والعاجز حتى على تسديد فائدتها ، علما بأنّ النظام البنكي العالمي لا يقبل منح قروض أخرى غير القروض المرصودة لتسديد فوائد الديون اياها ، والتي ليس من شأنها إلا أن تفاقم الديون . لهذه القروض مزية واحدة : زيادة ديون العالم الثالث . وينذرنا تقرير للبنك الدولي بأن ٤١ بلدا تعيش هذا الوضع وان العدد سيرتفع إلى مائة من أصل المائة وثلاثة وعشرين بلدا التي تشكل العالم الثالث . مشكلة هذه الديون هي أنها في حد ذاتها وبسبب ضخامتها قد تسبب في كل لحظة انهياراً مالياً عالمياً . وإن الأزمة التي يعرفها الشمال تتمثل بالبطالة وفي بعض الأحيان بالبؤس وانها وإن لم تصل إلى الأبعاد المأساوية التي تعرفها بلدان الجنوب تمس رغم ذلك فئات محرومة يزداد عددها يوماً بعد يوم . ولكن الأزمة هي أيضا التلويث الهائل لبيئتنا والتدمير المنهجي لآطار حياتنا .

تتجلى الأزمة على صعيد آخر في مشاكل مثل المخدرات والجنوح والعنف الأعمى والشيوخ المهملين الذين تمتلئ بهم بيوت الموت ، أي الملاجئ ، والانتحار الذي هو اليوم أوسع انتشاراً من أي وقت مضى في البلدان ذات الدخل القومي الخام المرتفع .

وأخيراً ، ولكي نتوقف عند هذا الحد لأن اللائحة ستكون طويلة ، فإن مشكلة الضجر واليأس هي التي يعاني منها المجتمع الاستهلاكي وخاصة الشباب .

يفقه أي شيء من الأزيمة التي تعصف بالنظام العالمي : انه يعلن عجزه عن تقديم أي علاج لها وانه لا يعرف فيها قبيلًا من دبير . هذا العلم الذي اتخذه الفكر الغربي ديناً - وفرضه علينا نحن أيضاً رغم أنوفنا - وجعله مفتاح جميع المشاكل الانسانية ، هو اليوم معطوب وعاجز . وهذا ما يعترف به اليوم ، كما رأينا قبل قليل ، باحثون علميون ، كهنة الاقتصاد أنفسهم .

يبدو اليوم هذا العلم المطلق على حقيقته التي لازمته دائما . أي كعلم تقريبي جدا ومتفرع عن خيارات أساسية مرتبطة بالبنى الذهنية للثقافة الغربية وللمجتمعات التي تشكّلها والتي استولى عليها في لحظة ما الادعاء الجنوني بالقدرة على اكتشاف الحقيقة ، بفضل نموذج (Paradigme) اختياراتها . يتضح اليوم بوضوح أكثر ، ان هذا العلم مجرد سقط متاع . فنقد ومراجعة نظرياته وتصوراته بات بالغ العنف والراديكالية بحيث ان مجرد بقائه هو بات منذ الآن موضوع جدل جدي لكي لا نقول موضوع تفكير جدي .

### محاكمة نسب لعين

هذا النسب الفكري اللعين الذي ينطلق من هوبس ، ديكرت ، مالتوس وداروين وينتهي إلى ماركس ولينين يواجه اليوم في مبدئه الاقتصادي بالرفض من قبل فرسان الاقتصاد أنفسهم . كما يواجه بنفس الرفض - ربما بصرامة أشد - في مبدئه المادي أيضا من قبل فرسان المادة أنفسهم : الفيزيائيين الجدد .

يقول هؤلاء بأن المادة ليست شيئا باردا جامدا ولا حياة فيه بل هي بالعكس ، حياة وحياة كثيفة ، انها روح : فقوانين الديناميكا الحرارية

الميكانيكية موجودة أولا عند ديكرت الذي كان يقول ان صرخات المخلوقات الحية لا تستحق إهتماما أكثر مما يستحقه صرير عجلة ما . لكن لسوء حظ ديكرت ، فإن صرير العجلة البشرية كما يتجلى خلال الأزيمة الحالية صار يصم الاذان . إلى درجة أن ورثته الفكريين لم يعودوا اليوم يعرفون إلى أي إله يتجهون .

### الاقتصاد والاقتصاديون الحيارى

ويصح هذا خصوصا في شأن الاقتصاد ، سلطان العلوم ، والذي يسري في أعماق النظام بأكمله هذا ما يعترف به دون لف ولا دوران ميتون فريدمان (Miton Friedman) أحد أشهر الاقتصاديين المعاصرين . إذ يقول في خطاب أمام الجمعية الاقتصادية الاميركية : أظن أننا معشر الاقتصاديين قد ألقينا خلال السنوات الماضية الكثير من الضرر بالمجتمع كله ولمهنتنا على وجه الخصوص وذلك بتقديم وعود فوق ما نستطيع إعطاءه . ويجب على هذا الكلام سنة ١٩٧٨ وبنبرة أكثر مأساوية ، ميشال بلومنتال (Michel Blumenthal) وزير المالية : انني أعتقد حقيقة ان المحترفين الاقتصاديين يكادون لا يفقهون شيئا من الوضع الراهن ، سواء قبل أو بعد الوقائع الاقتصادية ، وعلى نفس المنوال فقد اعترفت سكرتيرة غرفة التجارة السابقة جوانيتا كريبس (Juanita Kreps) عام ١٩٧٩ بانه ليس بوسعها أن تعود لمواصلة عملها كأستاذة لمادة اتصاد في جامعة دوك (Duke) : لم أعد أعرف شيئا جديرا بالتدريس .

وهكذا فإن علم الاقتصاد ، علم العلوم الذي يلخصها جميعا لم يعد



لأن الأزمة صارت واقعاً ليس بالإمكان إنكاره .

وهذه الأزمة ليست اقتصادية وحسب وليس بالإمكان تفسيرها بأي دورة من دورات الأزمات مثل تلك التي تصفها النظرية الماركسية . انها أزمة أكثر عمقا فهي تمس مستويات أساسية من الحياة . والرد عليها لا يمكن أن يكون من طبيعة اقتصادية فقط ، فالمقاربة الجديدة لحل هذه المشاكل ستدمج بالضرورة عناصر مرتبطة بالفلسفة السياسية وعلم الاجتماع والبيولوجيا وعلم النفس وبرؤية أكثر احتراما للبيئة . فالمطلوب اذن طريقة أخرى في التفكير ، رؤية أخرى للحياة ونموذج (Paradigme) اخر .

إن ما يجب أن يحدث هو تحوّل كامل في طبيعة المجتمع . ذلك أن الأزمة ليست أزمة نمو ، انها أزمة العقل والثقافة الغربيين . لقد فتح هذا النقاش في الغرب أولا وأثار ردود فعل شتى ، والاستشهادات السابقة توضح ذلك باستفاضة وتدل على ان هناك شيئا يختمر جديا في الغرب نفسه . وهذا فال خير لأن إعادة النظر في هذه الأمور يجب أن تتم في الشمال أيضا . ولكن لكي تكون فعالة وتتمخض على النتائج المأمولة فان على الجنوب أن يأخذ دوره فيها ..

وهذا النقاش لا يمكن أن يكون إلا منبثقا من الداخل لكي يكون أصيلا أي مرتبطا بواقع معاش ، ينبغي على إعادة النظر هذه التي تجري في الشمال أن تشحذ فكرنا ورؤيتنا وعند ذلك فقط تكون مجدية بالنسبة إلينا لا أن تقدم لنا فكرا جاهزا ، وبدلة فكرية للارتداء الفوري .

إن مشكلة القيم والثقافة هي المشكلة المركزية في النموذج (Paradigme) الغربي بيد انه لا يوجد نموذج فريد صالح لكل زمان

(Thermodynamique) تنقض قوانين الفيزياء القديمة . فقد صحح سادي كارنو (Sadi Carnot) نيوتن (Newton) وترتب على ذلك نتائج كبرى . الكهيرب (Eléctron) كما يقول الفيزيائيون الجدد ليس مادة بل انه يعمل عمله وهو محرك بروح هائلة لتصحيح القصور الحراري (Entropie) . رمزياً اختار الفيزيائيون الجدد مدينة قرطبة ، حيث عقدوا قبل سنوات ندوتهم التي كان لها صدى كبير ، ليعلنوا ذلك على رؤوس الاشهاد ... وفي قرطبة بالذات حاكموا العقلانية أو ما يقوم مقامها .. هل كان اختيار قرطبة مجرد صدفة غريبة ؟ قرطبة ، مدينة الفنون ، والعلوم . قرطبة ابن رشد وابن باجه وابن طفيل وابن حزم وابن الخطيب ... فلنترك الكلمة لفريتجوف كابران الحائز على جائزة نوبل وأحد أبرز ممثلي الفيزيائيين الجدد : ستتقارب الفيزياء النووية وعلم نفس اللاشعور عاجلا أو اجلا . فهما سيتوغلان ، كل على حدة وانطلاقا من أفقين متعارضين ، بعيدا في ربوع المتعالي ... فالنفس لا يمكن أن تكون مختلفة اختلافا شاملا عن المادة ، اذ لو أن الأمر كذلك فكيف تحرك المادة ؟ كما ان المادة لا تستطيع أن تكون غريبة عن النفس وإلا فكيف يكون بوسعها أن تخلق النفس ؟ فالنفس والمادة موجودان في نفس العالم وكل منهما رهينة الأخرى وإلا فإن تأثير أحدهما في الأخرى يصبح مستحيلا . ليت البحث العلمي يتقدّم بخطى حثيثة الى الأمام عسى أن يكون بوسعنا يومئذ أن نصل إلى اتفاق نهائي بين التصورات الفيزيائية والنفسية . ربما كانت محاولتنا الحالية متهورة ولكنها في رأيي تسير على طريق الصواب .

إن محاكمة الاساسين الرئيسيين للمجتمع الغربي : الاقتصادية ، المنحدرة من عقلانية معشوشة تضع في المقام الأول الكم والرياضيات ثم في المقام التالي المادية ، قد بدأت تتهاوى منذ مدة

الذي بدأ مع القرن المسمى بعصر الانوار (Sociétés des lumières) والذي كانت لا محدودية الحاجات البشرية في نظرة مسلمة بديهية . ونعلم اليوم ما أدى اليه هذا المفهوم من ضلال ومخاطر .

### مجتمع الاستهلاك : هذيان تعزيمي

يظل مشكل الاحتياجات والحدود لاستهلاك مسعور مطروحاً ، وكما قلنا سابقاً فان على مجتمعاتنا ألا تحدد لنفسها من أهداف المجتمع الغربي الاستهلاكية .

ليست البلدان السائرة في طريق النمو هي وحدها التي ينبغي عليها ان تتجنب هذا الطريق ، بل ان مراجعة هذا النمط من الاستهلاك ستصبح ضربة لازب في الغرب نفسه . لن تحدث هذه التغييرات بمرسوم حكومي أو بقرار فوقي ، بل بفضل اعلام صادق موجّه لاقناع الشعوب بضرورتها .

### قناعة وتضامن

المفهومان المركزيان اللذان عليهما أن يتحكما في هذا المسعى هما القناعة والتضامن ذلك اننا نعيش بالفعل في عالم محدود ، بل انه يزداد تقلصاً يوماً عن يوم ، بينما يزداد الجنوب أهمية عددية باستمرار .

سنكون واهمين اذا فكرنا ، في بلدان الجنوب ، في استهلاك مشابه للنمط السائد في الشمال ، فذلك لن يكون لا أخلاقياً ولا مرغوباً

ومكان ولكل المجتمعات . وذلك هو مغامرة الغرب الجنونية . وعلينا نحن أن نقرر باختياراتنا الصادرة عن قيمنا ورؤيانا وفلسفتنا في الحياة ، ونموذجنا الخاص .

ولا بد أن تقوم هذه الاختيارات على أسس فكرية خاصة بنا وأن تكون نقطة انطلاقنا هي الطبيعة مع الاقتصادية والمادية والفردية المستفحلة وبدائلها مثل الصراع بين البشر أولاً والطبيعة ثانياً ثم التنافس المسعور المفضي إلى روح الغزو والهيمنة والاستغلال . ذلك ان هذه الروح التي عفنت كل شيء بدءاً بتلويث القلوب وانتهاء بتلويث الطبيعة .

### عن بعض الكلمات المفخخة :

#### تنمية ، تقدّم ، بناء ، احتياجات ..

ان مشكلة ما اصطلح على تسميته بالتنمية جديرة بأن تثير انتباهنا . هذه الكلمة كما نعرف ، ليست محايدة ، انها مرتبطة بكل النسب الفكري المعلن الذي أوردناه فيما سبق .

على التنمية أن تكون تنمية لامكاناتنا ولحساسيتنا وللمكونات الجوهرية لشخصيتنا ؛ وتطوير للغتنا ومزاجنا ولثقافتنا وللواقع التي تعطي لجهننا الجماعي ، ولارادتنا الوجدانية معنى فقط على أساس التحديد الواضح لهذه المشكلات ينبغي أن نقوم ببلورة اختياراتنا خاصة الاقتصادية وهذا يعني ان على الثورة الثقافية أن تسبق الاختيارات الأخرى . وهناك إختيار وينبغي أن يرفض رفضاً : المجتمع الاستهلاكي ، هذا المجتمع الذي يمثل نهاية المسار

صارمة لمبدأ التضامن ، لا بد من احياء هذا المبدأ أيضا على الصعيد العالمي لكي يغدو التوزيع العادل لثروات الأرض وخيراتها هو الأساس الذي نشيد عليه عالماً اخر جديداً ..

## مكنة الفكر الانساني

اننا نعيش حقبة مهمة : حقبة الثورة الصناعية . لقد شهدت الثورة الصناعية الاولى احلال الطاقة الميكانيكية محل الطاقة الحية . اما الثورة الصناعية الثانية فانها تسجل احلال الفكر الميكانيكي محل الفكر البشري . فيما يخص مشكلات تنظيم الانتاج والخدمات فان السيبرنيكا (Cybernetique) والتألية (Automotion) سيسمحان بإيجاد الات تعمل بدقة وسرعة تفوقان العقل الانساني . هل ستكون الثورة الصناعية الثانية أيضا باهظة على الصعيد الانساني كما كانت الأولى ؟

لقد تركت الثورة الصناعية الاولى اثاراً رهيبه على جسد الانسانية . وتوشك الثورة الصناعية الثانية ان تكون أشد فظاظة وتدميراً اذا ظلت محكومة بنموذج الأولى .

فالخطر النووي يحوم فوق رؤوسنا اضافة إلى تلويث الطبيعة وتسميم الوديان والبحيرات والمحيطات وظواهر أخرى مثل مرض السيدا (فقدان المناعة المكتسبة) ، الذي بإمكانه أن يتحول إلى وباء واسع الانتشار ، وبعبارة موجزة فاننا أمام خطر كارثة اجتماعية يضاعفه خطر كارثة نووية توشك السيبرنيكا والمعلوماتية (Informatique) ، اذا ما أسيء استعمالها ان تعجلا بهما معاً .

فيه بالنسبة لصحته نفسها . ان هذا الضرب من الاستهلاك لم يكن ممكناً في الشمال حتى الان إلا على حساب الأغلبية التي تزداد اتساعاً يوماً بعد يوم . وهو وبيل على الصحة لانه يسبب أمراضاً خطيرة مثل السرطان ، أمراض القلب والشرابين ، الاكتئاب ، الانهيارات العصبية وسيكون فضلاً عن ذلك مستحيلاً مادياً نظراً إلى أن كوكبنا محدود الموارد وسيزداد مع الايام والاعوام تلفاً على تلف . في حين ان اعدادنا تزداد أكثر فأكثر .

بيد ان القناعة لا تعني اليأس أو التزهّد . فهناك فرقاً بين استهلاك واستهلاك . استهلاك يمشي جنباً لجنب مع نوعية الحياة في حين ان الاستهلاك الاخر ينفىها نفياً . لأنه منفلت من عقاله توجهه شرور غسل الدماغ الذي يقوم به الاعلان .

المفهوم الثاني : التضامن يشكّل الأساس الاخر لفكرنا ولعلمنا ، انه المبدأ الفعّال بالنسبة لنا وهو نقيض مبدأ التنافس ، الغبي والمغبيء ، الذي يختزله ويلخصه شعاراً : (كل واحد ضد الكل والكل ضد كل واحد) الذي هو قانون غاب حقيقي قاد الغرب إلى الفردانية التي وضعها هوبس وهيوم ... على التضامن أن يكون مبدأ ديناميكياً وأكثر واقعية وصدقاً من مبدأ الصدقة أو المساعدة أو التعاون التي يستخدمها قاموس المصطلحات الدولي . الملكية في الاسلام لله ولا يتمتع بها الانسان إلا كوكيل . لا يأخذ هذا الاستمتاع معناه الحقيقي إلا عندما يكتسي شكلاً اجتماعياً . وقد كان توزيع الفائض وهو ذو طابع اجتماعي بارز السمة الجوهرية للمجتمع الاسلامي . ان وظيفة الزكاة والصدقات والاهمية التي اكتسبتها المؤسسات الخيرية والوقف الذي مثل ربع ممتلكات العالم الاسلامي تشهد على إهتمام حقيقي بإعادة توزيع الفائض وعلى ممارسة

## تغيير الاتجاه

مهما كان الثمن علينا تغيير الاتجاه . علينا بلورة معرفة جديدة ؛ لأن المعرفة السائدة عندنا تكتفي بإعادة إنتاج مقولات النسب الفكري للعين من هوبس إلى ماركس مروراً بديكارت وداروين ونيوتن ... فمدارسنا وثانوياتنا ومعاهدنا وكلياتنا وجامعاتنا تنقل وتنتشر نفس هذه المعرفة المنحرفة التي افترض فيها القدرة على قيادتنا الى الطريق المضيء المؤدي إلى التنمية والتقدم والنماء والانتاجية والحضارة . وتخصّص لذلك نفقات مالية ضخمة . وهكذا نزرع انحرافاً هائلاً في عقول شبيبنا يفسد أرواحهم ويقودهم إلى فقدان هويتهم الثقافية وإلى الاغتراب .

من الضروري إعادة تقييم هذه المعرفة وإصلاحها وتكييفها ورصدها في المقام الأول لخدمة أهداف أخرى مدروسة بعناية .

علينا أن نوظف هذه المعرفة الجديدة أولاً في خدمة زراعة هدفها توفير الغذاء لسكان البلاد وتقليص التبعية الغذائية المرادفة للتبعية السياسية . وان نوظفها ثانياً في خدمة صناعة مرتبطة بهذه الزراعة وموصودة أساساً لتلبية احتياجات السوق الداخلية . ان المرور بالصناعة حتم على الإنسانية وليس من الوارد رفضه ، لأنه ليس من الوارد رفض الحياة . ولكن ليس هناك طرق أخرى أقل كلفة بالنسبة

للإنسان وأقل ظلماً وأقل عدوانية . فالطريق التي اختارها الغرب كانت باهظة الى أقصى الحدود . ولا بد من جهة أخرى ، من أخذ كل التدابير اللازمة لتفادي الارتباط الذي يؤدي إلى ظهور بورجوازية تؤدي بدورها إلى ظاهرة الشركات المتعددة الجنسية .

## علم جديد ، تكنولوجيات جديدة

وكذلك فانه ليس من الوارد رفض العلوم والتكنولوجيات . فهنا أيضاً لا وجود لطريق سهل ، لأن العلوم والتكنولوجيات ناجمة عن اختيارات وجودية وعن بنى ذهنية مرتبطة بثقافة ما ، وبعبارة موجزة فانها نتاج نموذج يحتذى (Paradigme) . إن نموذجاً آخر واختيارات أخرى حرية بفتح سبل مغايرة للاقتراب من العلم وانتاج تكنولوجيات أخرى .

إن علم عالم الجيولوجيا المصري العلامة فاروق الباز لم يوظف لسوء الحظ في سبيل إكتشاف الاحتياطي المائي الضروري جداً لمصر والعالم العربي ، بل وظّف في غزو الفضاء ، لتمكين رائد أميركي من أن يكون أول إنسان يطأ أرض القمر . مثال آخر : لقد كان البارود معروفاً في أسيا قروناً قبل أن يكتشفه الغرب ، وكان يستعمل أساساً في الأعياد والأفراح ، لكن الغرب هو الذي إخترع المدفع . تتكاثر الدراسات والشهادات للتنديد بالتوجيه الذي يعطيه أو بالأحرى يفرضه الموكب العسكري - الصناعي على البحث العلمي . إن قسماً ضخماً من ميزانية البحث والتطوير العلمي يحتكره هذا المركب بنسبة ٨٥٪ وأحياناً ٩٠٪ أو تزيد ولا تكاد تستأثر الصحة والمعمار وتسجية أوقات الفراغ أي نوعية الحياة الجديدة بالأحياء إلا بنسبة ١٠٪ .

لهذه النسب تأثير حاسم على المظهر العام لمجتمع ما ؛ إنها تشكل القاعدة التي يقوم عليها هيكل هذا المجتمع .

لذا بات من الضروري قلب هذه النسب أي بإحداث تغيير نوعي

للحياة ولأسلوب الحياة علينا أن نغير وجهتنا ونتخيل ونبعث عالماً جديداً . لكن لا سبيل إلى ذلك ما لم نعلم بهذه الاختيارات في مجال البحث العلمي والتكنولوجيا .

وبهذا الصدد يقول جاك غرينغال في كتابه «أزمة وهمسات» (Crise et chuchotements) العلم التجريدي الحسابي الشكل (Artihmomorphique) يقتل الأحياء . فالإنسانية تغوص في الجنون من فرط إعتقادها في العقل دون سواه وعدم قبولها من الواقع إلا ما هو عقلائي .

أما ليونار شياشيا (Léonard Sciascia) فقد كتب من جهته قائلاً : ان بنية مشروع مناهاتن (Manhattan Project) والمكان الذي انجز فيه يتفتت بالنسبة لنا على شكل صور للتمييز والاستبعاد لا تخلو من وجه شبه مع معتقلات الإبادة الهتلرية . عندما يتلاعب بالموت ، ولو كان مرصوداً للأخريين ، كما فعل ذلك الأميركيون في لوس الاموس (Los Alamos) فانهم يقفون في صف الموت وداخل فكي الموت . وباختصار فالأميركيون أعادوا في لوس الاموس خلق ما كانوا يظنون انهم يحاربونه وهذا ما عبّر عنه بطريقته الخاصة ميشال سير (Michel Serres) عند حديثه عن لوس الاموس ، وبه نختتم : وأخيراً أدركت لماذا كان على المشروع الذي ولد دون شك في القرن الثامن عشر أن ينتهي في المكان الذي تجتمع فيه كل ذرات الرمل ، حيث لم يزل عمل البشر يحولها إلى زجاج . ان العقلانية (Rationalisme) هي رسول الموت وعلى العلم أن يطلقها .